الرقم الدولي المعياري للمؤتمر (معتمد ومصنف دوليًا) ISBN 978 - 9953 - 0 - 2970 - 2

المؤتمر الدولي الحادي عشر للغة العربية

22 - 24 أكتوبر 2025م الموافق 30 ربيع الآخر - 2 جمادى الأولى 1447هـ

دبي - الإمارات العربية المتحدة

الهيئات العربية والدولية أعضاء المجلس الدولي للغة العربية

اسم الباحث: الدكتور بدر بن سالم بن جميل السناني.

الدرجة العلمية: دكتوراه

المسمى العلمي: أستاذ مشارك

المؤسسة: جامعة التقنية والعلوم التطبيقية (كلية التربية بالرستاق) - سلطنة عمان.

الدولة: سلطنة عمان

البريد الإلكتروني: bader.alsinani@utas.edu.om

عنوان البحث: العلاقة الضدية في الأنساق التعبيرية وإيحاءتها النفسية.

الملخص:

عالج علماء العربية نصوص لغتهم –ولا سيما النص القرآني- من زوايا مختلفة، فلم تقتصر دراستهم هذه النصوص على أبعادها اللغوية منفصلة عن العلوم الأخرى، بل وقفوا في مواطن متناثرة من مؤلفاتهم على قضايا علم اللغة مستعينين بالعلوم المختلفة التي تكشف لهم أبعاد النص، وتمكنهم من قراءة النص قراءة فنية عميقة؛ لذا اختلفوا إلى مسائل اللسانيات التواصلية، وزادوها تفصيلا، وعمقا، وليس هذا بغريب على أناس تجاوزوا البحث في معالجتهم بنية الخطاب الصورية، إلى تناول الكلام في كل حيويته وعفويته، واهتموا ببنية المتكلم، وخلفياته المعرفية، وحالته النفسية، والتفتوا إلى المخاطَب بكل ما له من فهم وقدرة على التأويل، واعتنوا به عناية خاصة فقسموا الكلام إلى أضرب مبنية على مبدأ لكل مقام مقال؛ مراعاة منهم مقام المخاطب، وحالته النفسية.

اعتنى علماء العربية والبيان بمفردات القرآن الكريم التي بلغت الغاية في دقة الاختيار، فجاءت مطمئنة في السياق الذي ترد فيه، موافقة حالة المتكلم فلا يغني عنها غيرها، وقد وقف العلماء طويلا على تحليل تراكيبه التي جاءت مقتضية آثار المعاني، ومرتبة على حسب ترتيب المعاني في النَّفس، ومراد المتكلم؛ لأن جوهر الكلام حالة نفسية، وتعبير وجداني، فما ننطقه هو تصوير ما في النفس من معنى، وانعكاس الحالة الشعورية التي نعيشها، أو هو ظل لهذا الكلام النفسي، وامتداد تأثيره في المتلقي.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على العلاقة الضدية بين الوحدات المعجمية ودورها في بيان حالة المرسل أو المستقبل النفسية، والتركيز على أصواتها ووحدتها المعجمية وتآلفها مع غيرها تولد كل منها عددا كبيرا من الدلالات التي تتعاضد فيها الفونيمات التركيبية وفوق التركيبية في إبراز المعاني وتجليتها النفسية، فتعمل على بيان الأثر النفسي الحاصل من اجتماع الضدين في موقف لغوي واحد، ودلالته في المتلقي.

الأسئلة التي يجيب عنها البحث:

يجبب البحث عن سؤاله الرئيس الذي سيتفرع منه جملة من الأسئلة ستعالج في متن النص، أما السؤال الرئيس فهو: ما أثر العلاقة الضدية في الأنساق التعبيرية وانعكاساتها النفسية ؟

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج اللغوي النفسي؛ بغية بيان الترابط بين الفونيمات (التركيبية وفوق التركيبية) والألفاظ القرآنية وعلاقتها بحالة المتكلمة أو المخاطب، ومن هذا الزاوية النفسية التداولية يتكئ البحث على مستويات اللغة، وما وصلت إليه الدراسات اللغوية النفسية في معالجة فكرة البحث (العلاقة الضدية في الأنساق التعبيرية، وإيحاءتها النفسية) الذي يحلل الآيتين السابعة والثامنة بعد الثلاثين من سورة سبأ؛ رغبة في كشف شيء من جمالية التعبير القرآني، وبيان الأثر النفسي الحاصل من اجتماع الضدين في موقف لغوي واحد، ودلالته في المتلقي.

أدوات البحث:

يعتمد البحث على الإفادة من علم اللغة النفسي؛ لبيان ترابط الدراسات اللغوية والمناهج النفسية، وكشف شيء من الأوجه البلاغية، والأسرار النفسية في الآيات القرآنية، بتوظيف المنهج التحليلي، فنظم التركيب القرآني جاء مقتضيا آثارَ المعاني، وتُرتَّبها على حسب ترتيب المعاني في النَّفس، ومراد المتكلم، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وضع علة تَقْتضي كونه هناك، وحتى لو وُضعَ في مكان غيره لم يصح فهي ترجمان نفسية المتكلم، وكاشفة دلالته النفسية.

محاور البحث:

يُقسم البحث إلى مقدّمة، وثلاثة مباحث، فخاتمة، وعُنْوِنَت المباحث بالآتي:

الأول: الأداء اللغوي المنجز في الدرس اللغوي.

الثاني: الجمع بين الضدين وإيحاءته النفسية.

الثالث: الدلالة النفسية في الجمع بين النعيم والعذاب.

1- الأداء اللغوي المنجز في الدرس اللغوي.

تُعدُّ اللغة -في المخبر اللساني[1]- نظاما له عناصره الرئيسة المكونة له بصورة علمية؛ إذ لا

[1]- عبد العزيز مطر, (1986). علم اللغة وفقه اللغة تحديد وتوضيح. ط 1. قطر: دار قطري بن الفجاءة. ص 14، وحلمي خليل. (1992). مقدمة لدراسة علم اللغة. ط 1. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية. ص 20.

بد لكل عنصر لغوي أو الصورة السمعية أو الكتابية (الدال)، من بُعْدٍ يمثله، وهو التصور الفكري الذي يحمله هذا الدال، وهو ما يعرف عند دي سوسير بالمدلول، حيث أطلق سوسير على تصور الفكري للعلامة أو الإشارة اسم المدلول، وأطلق على صورتها السمعية أو الكتابية اسم الدال، فهو يرى أن النظام اللغوي متصور أساسا بصفته نظاما من العلامات، والعلامة اللغوية محددة فيه؛ لكونها وحدة طبيعية ذات وجهين لا ينفصلان، هما:[2] الدال أو اللفظ، هو الصورة الصوتية، والمدلول أو المعنى، هو الصورة المفهومية المتصورة.

يحمل كل دال في النظرية اللغوية بعدا دلاليا معينا يسعى المتكلم إلى نقله - نطقا أو كتابة - إلى المستمع، ويُدْعَمُ هذا النقل بالأداء اللفظي وغير اللفظي؛ لأنه يهدف إلى بيان مراد النشاط الإنساني، وما يدور في الذهن من دلالة. يقول هايمز: "لكي تتواصل مع الآخرين لا يكفيك أن تعرف اللغة، ونظامها، بل أن تعرف -أيضا- كيف تستعملها في سياقها الاجتماعي"[3]، لهذا يجب مراعاة جملة الظروف الحافة بالنص؛ لأن الخطاب يبسط ظلاله الدلالية على النسق اللغوي الذي يتشكل وفق الذات المتلقية، فالتركيب الخطابي- المشدود إلى حيثيات التخاطب أو سياق المقام -يبلور وحداته اللفظية المشكلة النسق التركيبي بناء على مقام المتلقي، أو المتلقين الذهني، والنفسي، والاجتماعي.

كان العرب في حديثهم يتخيرون الألفاظ، ويأتون بتعبير دون آخر؛ مراعاة لأحوال المخاطب النفسية، فقد كانوا مدركين لما للكلمة من أثر، وأن اختلاف المعنى المراد التعبير عنه، يوجب تباين اللفظ، أو اختلاف الترتيب؛ فعملية الحديث يتنازعها قطبان مهمان، هما: المعنى الْمُرَاد التحدث عنه. واللفظ الْمُعَبِّر عن هذا المعنى.

إن من يطالع منهج العرب في كلامها يلحظ أن العرب كانت تختار الألفاظ، وتنتقي الكلمات، وتعتنى بالتراكيب، مراعاة للجوانب النفسية، كانت - أيضا - تُغَيِّرُ ترتيب الكلمات؛ لتأتي موافقة ما في نفوسهم، أو نفس المخاطب، فربطوا الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله " كأَنَّهم يقدمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم بشأنهِ أعْنَى وإِن كانا جميعا يُهمَّانِهم ويَعْنيانهم"[4].

إن الواقف على النص القرآني يدرك أنه معجزة بيانية تحدى به الله العرب، فالمفردات القرآنية وتراكيبه توحي بجمالية التصوير، فتجعل المشهد المتخيل أمامك حقيقة، فهي "ترسم صورة شاخصة لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة، في خطوة يزيد من قيمتها أن لفظا مفردا هو الذي يرسم الصورة، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في

---

[2]- دي سوسير، فرديناند .(1985). دروس في الألسنية العامة. ترجمة صالح القرمادي. محمد الشاوش. وعجينة. ط1. ليبيا: الدار العربية للكتاب. ص 87.

[3]- بو معزة، رابح. (2009). تيسير تعليمية النحو. ط 1. القاهرة: عالم الكتب. ص 44.

[4]- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن .(2001). دلائل الإعجاز. تحقيق سعد كريم الفقي. ط 1. القاهرة: دار اليقين. ص 102.

الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعا"[5]، فهو ينقل المعاني والحالات النفسية في صورة شاخصة، يجد صدى له في نفس المتلقي، فيتجسد أثر الكلام، طالما أن الوظيفة التبليغية للخطاب لا تقف عند حدود الدلالة المعنوية للفظة والعبارة، بل تتجاوزها إلى عنصري الإيقاع والظلال في لغة الخطاب؛ لذا يصدر كلُّ متكلم في كلامه عن علم خاص به، ويختلف استقبال الكلمة من شخص إلى آخر؛ وفق تجاربه وحياته، ويتجلى هذا البعد النفسي واضحا في دلالة الكلمة المركزية أو المضمون المنطقي، ودلالتها الهامشية أو المضمون النفسي، "لكل كلمة من الكلمات مضون منطقي، ومضمون أو ارتباط نفسي، فالمضمون المنطقي هو المعنى الذي ينص عليه القاموس في الأغلب، يكون الاشتراك في فهمه واحدا أو شديد التقارب، ولكن المضمون أو الارتباط النفسي يختلف من متكلم لمتكلم اختلافا كبيرا، ولا يمنع هذا من اشتراك جمهور المتكلمين باللغة في طائفة كبيرة من إيحاءاته ومما يرتبط به من ظلال المعاني"[6].

إن فكرة المقام هذه هي الأساس الذي ينبني عليه شق اللغة الاجتماعي، وهو الوجه الذي تتمثل فيه الأحداث والظروف والعلاقات التي تسود ساعة أداء المقال، فكان من رأي الجاحظ - والبلاغيين بعده - أن لكل مقام مقالا، لأن صورة المقال تختلف في نظر البلاغيين بحسب المقام[7]، وأن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، وأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال وضع الكلمة في سياقات مختلفة، وهذا يتوافق مع ما ذهب إليه ستيفن أولمان أن اللغة اجتماعية، والكلام فردي[8]؛ لأن المواقف النفسية التي يمر بها كل من المتكلم والسامع لها أثرها البالغ في التعبير والاستيعاب[9]، فعند التبادل اللغوي، نبلِّغ من المعاني أكثر مما تدل عليه الكلمات، فيعمد المتكلم إلى تنويع أساليبه التواصلية تنويعا بحسب حالة المخاطبين وطبيعة النفس البشرية المترددة بين إقبال وإدبار، ونشاط وفتور.

إن القرآن العظيم كتاب معجز، حوت آياته ضروب المعرفة، والقواعد الأخلاقية، والأصول التربوية، وهذا ما أكدته التجارب والوقائع العملية؛ إذ "لم يلجأ أحد من العلماء إلى القرآن الكريم في مسألة إلا وجد لها فيه أصلا "[10]، إلا أن الذي يهمنا هنا أساليب تربية القرآن الكريم، والطرائق تعامله مع نفوس المخاطبين، ومن يتأمل آيات القرآن يلحظ أنه لم يسلك مسلكا وحيدا في مخاطبة النفوس، ومعالجة قضاياها، ولعل المزاوجة بين المتضادين أي الجمع بين الشيء

---

[5]- حمدان، نذير. (1991). الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم. ط 1. جدة: دار المنايرة. ص 24.

[6]- السعران، محمود.(د. ط.). علم اللغة مقدمة للقارئ العربي. د. ت. بيروت: دار النهضة العربية. ص 278.

[7]- تمام حسان. اللغة العربية معناها ومبناها. ص 337، وفرحان اليحيى: اللغة الوظيفية والدلالة. مجلة الموقف الأدبي. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. العدد 446. حزيران 2008. ص 8.

[8]- أولمان، ستيفن. (. د . ت). دور الكلمة في اللغة. ترجمة كمال بشر. ط 2. القاهرة: دار غريب. ص 32.

[9]- حنفي بن عيسى. (1980). محاضرات في علم النفس اللغوي. ط 1. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص 137.

[10]- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (1997). الموافقات. تحقيق مشهور بن حسن. ط 1. الرياض: دار ابن عفان. ج 4 ص 189.

وضده في سياق واحد من أكثر الأساليب التي اعتمدها القرآن الكريم، ومن صوره الجمع بين الترغيب والترهيب الذي يعد من أهم الأساليب التي تعامل بها القرآن الكريم مع النفس البشرية.

2- الجمع بين الضدين وإيحاءته النفسية.

الأضداد جمع ضد، وضد كل شيء ما ناقاه، تَقول: هَذَا ضِدّه وضَدِيده، والليلُ ضدُّ النَّهَار، إِذا جَاءَ هَذَا ذهب ذَاك، ويُجمع على الأضْداد، ويشير مصطلح التضاد إلى إطلاق الكلمة على الشيء، ونقيضه،؛ أي: الجمع بين الشيء وضده في كلمة واحدة، ويتناوله علماء اللغة في إطار نظرية العلاقات الدلالية المتصلة بتعدد دلالة الكلمة وغموضها[11]، وقد أدرجه السيوطي[12] تحت ظاهرة المشترك اللفظي، وعقد ابن قتيبة في أدب الكاتب بابا في تسمية المتضادين باسم واحد[13]، ومنه (الجَوْن: الأسود، والأبيض)، و(الصَّريم: الليل، والصبح)، و(السُّدْفَة: الظلمة، والضوء)، و(الجَلَل: الشيء الكبير، والشيء الصغير)، و(النَّاهل: العطشان، والريَّان).

ومنه في القرآن الكريم لفظة (قُرُوَء) في قوله تعالى:(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ) (سورة البقرة: 228)، قال الأزهري: "جعل الشافعي -رحمه الله - القروء الأطهار، ومن جعل الأقراء حيضا ذهب بها إلى الوقت، يقال: هبت الريح لقرئها وقارئها؛ أي: لوقت مهبها فجعل القرء حيضا؛ لأنه يجيء لوقته"[14]، إلا أن مدار هذا العمل في الجمع بين الضدين؛ أي: بين الشيء ونقيضه في سياق واحد، وهو يندرج عند علماء البديع تحت مصطلحي الطباق (المطابقة)، والمقابلة؛ وهي الجمع بين الضدين في كلام أو في بيت شعر كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد، . . .، والمطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين، والمقابلة تكون غالبا بين أربعة أضداد، ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه نحو: (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا) وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد[15].

يعد أسلوب الترغيب والترهيب من أهم الأساليب التربية في مخاطبة النفس البشرية التي ركبت من تقابل الرغبة والرهبة، والنفس تقارن حين تسمع الخير، ونتائجه وآثاره، ثم تنتقل إلى الجانب الآخر فتسمع الشر ونتائجه وآثاره، لتقارن بين الحالتين؛ فالترغيب والترهيب خطان متقابلان من خطوط النفس يوجدان فيها متجاورين مزدوجي الاتجاه، ففي الترغيب إغراء

---

[11]- حلمي خليل. (2005). مقدمة لدراسة فقه اللغة. د. ط. مصر: دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة. ص 175.

[12]- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د. ت.). المزهر في علوم اللغة وأنواعها. تحقيق محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل. د. ط. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية. ج 1 ص 318.

[13]- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم. (1996). أدب الكاتب. تحقيق محمد الدالي. ط 2. بيروت: مؤسسة الرسالة. ص 44.

[14]- الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهر. (1979). الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي. تحقيق محمد جبر الألفي. ط 1. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ص ص 341 - 342.

[15]- الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني. (1998) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري. ط 1. بيروت: مؤسسة الرسالة. ص ص 844 - 845.

بالشيء، وغرس الحرص عليه في النفس[16]، ودفع إلى الأمام، والامتثال، والاتباع، والرضى، والقناعة، وفي الترهيب تحذير من الشيء، وغرس الخوف منه في النفس، فيضع حاجزا عن الانحراف والوقوع في المناهي والتردي في المخاطر والمهاوي.

عنت العرب بأسلوب الترغيب والترهيب؛ رغبة في إيضاح المعاني، وتقريرها في النفوس، وقد خاطب القرآن الكريم هذه النفس البشرية بما يتناسب ومقامها، وتقلباتها، فنوَّع في معالجاته؛ ولم يسلك مسلكا واحدا في معالجاته، فهو تارة يرغب في تحقيق أمر، وتارة يرهب في الإقدام على شيء، وتارة يزاوج بين الأسلوبين.

إن الأمثلة في هذا الباب كثيرة، والسنة النبوية مليئة بنماذج هذه التربية، فمن أراد التوفيق سلك هذا المنهج؛ لاعتماد أسلوب الترغيب والترهيب القرآني والنبوي على: [17]

أولا: الإقناع والبرهان، وهذا يعني تربويا أن نبدأ بغرس الإيمان والعقيدة الصحيحة في نفوس الناشئين؛ ليتسنى لنا أن نرغبهم بالجنة، أو نرهبهم من عذابا لله، وليكون ثمرة عملية سلوكية.

ثانيا: التربية الوجدانية للإنسان وهي مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ثالثا: تصوير نعيم الجنة وعذاب النار تصويرا فنيا رائعا، بأسلوب واضح يفهمه كل الناس.

إن دراسة الترغيب والترهيب في هذه المباحثة لن تكون مفتوحة على مصراعيها، إذ يركز البحث على السياق الذي يجتمع فيه الترغيب والترهيب معا، رغبه في بيان الأسرار النفسية في الجمع بين الترغيب والترهيب، وتحليلها في ضوء مستويات اللغة، وسيكون التطبيق في رحاب قوله تعالى في سورة سبأ: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (37) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (38)) فالآية الكريمة تجمع بين الترغيب والترهيب، وهما مبنيان على إمالة الإنسان إلى الخير، وصرفه عن الشر، وهذا ما سيكون عليه المبحث القادم.

3- الدلالة النفسية في الجمع بين النعيم والعذاب.

حظيت دراسة المعنى - في النظر اللساني الحديث - باهتمام مميز، حتى قيل: إن اللغة معنى موضوع في صوت، وقد استقطبت دراسة اللغة اهتمام المفكرين؛ "لأن عليها مدار حياة مجتمعاتهم الفكرية والاجتماعية، وبها فهم قوام كتبهم المقدسة"[18]، فللغة علاقة وثيقة بالعلوم

---

[16]- قلعجي، محمد رواس، وقنيبي، حامد صادق. (1988). معجم لغة الفقهاء. ط 2. بيروت: دار النفائس. ص 128.

[17]- النحلاوي، عبد الرحمن. (2007). أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع. ط 25. بيروت: دار الفكر. ص 258.

[18]- منقور، عبد الجليل. (2001). علم الدلالة (أصوله ومباحثه في التراث العربي). دمشق: اتحاد الكتاب العرب. ص 14.

المختلفة، لهذا لا يمكن دراسة المعنى في مستوى دون آخر، إلا أننا فصلنا المستويات اللغوية عن بعضها؛ خدمة للدراسة وإيضاحا للمنهج، مع إيماننا بارتباط هذه المستويات؛ لأنه قد يشترك في دلالة تركيب ما مستويان أو أكثر.

3. 1. المستوى الصوتي

اختلف علماء اللغة في قيمة الصوت الدلالية وعلاقة الدال بمدلوله، وقد أفرد أفلاطون هذا الموضوع في كتابه (Cartyle)[19]، وأكد أن للأشياء جوهرًا ثابتًا، وأن الكلمة أداة للتوصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها، أي بين الدال والمدلول تلاؤم طبيعي، فلهذا كان اللفظ يعبر عن حقيقة الشيء. وأشار أفلاطون إلى ما تمتاز به الأصوات اللغوية من خواص تعبيرية؛ أي: العلاقة الطبيعية بين الدال والمدلول. ولذلك كانت الأصوات أدوات تعبير عن ظواهر عدة.

توقف عند هذه المسألة -طويلا- البحث اللغوي العربي والغربي، بين القبول والرد، إذ تكاد تطرد أراء الباحثين على أن من الألفاظ ما هو مصور لمعناه بجرس حروفه، وأكثر أهل اللغة والعربية يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ، والمعاني، وأن الأصوات الفخمة القوية تواتي المواقف القوية"[20]، وعللوا هذا الاختيار؛ لأنه "كان حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الألفاظ"[21]، وهذا الأسلوب كثير في كلام العرب إذ يتغير المعنى بتغير صوتٍ من أصوات لفظه كتفريقهم بين (خضم) و(قضم) إذ يستخدم الصوت الأقوى غالبا للدلالة على المعنى الأقوى.

يرى بعض علماء العربية وجود الرابطة العقلية المنطقية بين الصوت ومدلوله أو ما يسميه بعض المحدثين بالرمزية الصوتية، أو القيمة الصوتية، وأن هنالك تناسبا بين أصوات اللغات وأصوات الطبيعة؛ بل هي محاكاة لها وتقليد لأصواتها، فكانوا يصورون اللفظ على هيئة المعنى، وهذا مذهب قد نبه عليه كثير من علماء العربية، إلا أنهم لا يشترطون مناسبة كل لفظ لمعناه، خلافا لعباد الصيمرى حيث أثبتها بين كل لفظ ومعناه، فذهب إلى أن الصلة بين كل لفظ ومعناه ذاتية موجبة، أي" إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع"[22].

بالصلة بين الدال ومدلوله ذهب ابن القيم في معنى قوله تعالى: (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)، أنه" لما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس ويؤكده عند من يلقيه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها فقالوا: (وسوس وسوسة) فراعوا تكرير اللفظ؛ ليفهم منه تكرير مسماه، ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه، . . .، وقد عُلم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يُصب؛ لأنّ الثلاثي لا

---

[19]- عبد العزيز بن عبد الله. (1975). التعريب ومستقبل اللغة العربية. معهد البحوث والدراسات العربية. ص 78.

[20]- علوية- نعيم. (1986). بحوث لسانية بين نحو اللسان ونحو الفكر. ط 2. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات. ص 13.

[21]- ابن جني، عثمان بن جني.(2001). الخصائص. تحقيق عبد الحميد هنداوي. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. ج 2 ص 158.

[22]- ابن عربشاه، إبراهيم بن محمد. (د. ت.). الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم. تحقيق عبد الحميد هنداوي. د. ط. بيروت: دار الكتب العلمية. ج 2 ص 231.

يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر، . . .، فتأمله فأنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني"[23].

من هذا ما قاله الخطيب في قوله تعالى في سورة الرحمن: (فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ) "النضخ، والنضح، بمعنى، إلا أن النضخ أكثر إعطاء للماء من النضح. كما يشعر بذلك ثقل الخاء، وخفة الحاء، فعلى مقدار وزن كل منهما يكون قدر كلّ من النضخ والنضح من الماء"[24].

ناصر قضية ارتباط الدال بالمدلول محمد المبارك؛ فخصص في كتابه فقه اللغة وخصائص العربية، مبحثين:[25] أولهما: القيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللغة العربية. والآخر: الوظيفة البيانية والقيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية. ويخلص المبارك إلى أن هذا أول دليل تقدمه لنا العربية من خاصتها الطبيعية وعلى أنها بنت الفطرة والطبيعة.

هذه أمثلة قليلة لما في القرآن من كلمات شديدة الإيحاء، قوية البعث لما تتضمنه من المعاني. وهناك عدد كبير من ألفاظ، تصور بحروفها، لكنك تجد في المقابل من ينكر هذا الارتباط بين الدال ومدلوله، حيث رفض إبراهيم أنيس هذه العلاقة، فهو يرى أن ما قاله ابن جني والثعالبي تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة[26]. ونادى بهذا قبله الجرجاني الذي رافض هذه القيمة بين الدال والمدلول، فهو لا يرى بوجود علاقة حقيقية بين الدال والمدلول، يقول: "نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى.. فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[27] .

أما في الدرس الحديث فيرى دي سوسير أن "الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي"[28]، لأنه ليس هناك أي رابطة فطرية بين اللفظ ومدلوله، ولو صح الافتراض القائل بوجود علاقة فطرية بينهما لكان حتما أن يتكلم الناس لغة واحدة، يقول صلاحية: "إن وجدت فهي المصادفة، وإن أوجدت فهي ضرب من الفلسفة اللغوية التي تحتمل الرجحان، وهذا المسطّح المائي يسمى في العربية بحرًا وفي الإنكليزية Sea وفي الفرنسية Mer"[29].

يتبنى هذا البحث وجود قيمة صوتية دلالية بين الدال ومدلوله ولا سيما في القرآن الكريم، وقد وظِّفَت الأصوات في القرآن الكريم توظيفا دقيقا خدمة المعنى فضلا عما يحققه من جمالٍ

---

[23]- ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. (1996). بدائع الفوائد. تحقيق هشام عبد العزيز عطا، وآخرين. ط 1. مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز. ج 2 ص 474.

[24]- الخطيب، عبد الكريم يونس. (د. ت). التفسير القرآني للقرآن. د. ط. القاهرة: دار الفكر العربي. ج 14 ص 697.

[25]- المبارك، محمد. (1968). فقه اللغة وخصائص العربية. ط 1. بيروت: دار القلم. ص 261.

[26]- أنيس إبراهيم. (1972). من أسرار اللغة. ط 2. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. ص 126.

[27]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 49.

[28]- دي سوسير: دروس في الألسنية العامة. ص 111.

[29]- صَلاحية، أحمد عبد القادر. (1991). البَحْر في مَعَاجم اللغة. مجلة التراث العربي. مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب. دمشق. العدد 44. يوليو. ص 6.

صوتي، ولهذا القول مؤيدوه؛ حيث ينطلق القائلون بالارتباط بين الدال ومدلوله من كون المفردة القرآنية قد تجاوزت حدودها المعجمية، فلم تأتِ اعتباطًا، فهي "ترسم صورة شاخصة لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة، في خطوة يزيد من قيمتها أن لفظا مفردا هو الذي يرسم الصورة، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والظل جميعا"[30]. فالتعبير القرآني فني مقصود، كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراعَ في هذا الوضع الآية وحدها، ولا السورة وحدها، بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله[31].

يقول الرافعي: "كل الذين يدركون أسرار الموسيقى، وفلسفتها النفسية لا يرون في الفن العربي بجملته شيئا يعدل هذا التناسب الذي هو طبيعي في كلمات القرآن، وأصوات حروفها وما منهم من يستطيع أن يغتمز من ذلك حرفا واحدا، ويعلو القرآن على الموسيقى أنه مع هذه الخاصية العجيبة ليس من الموسيقى"[32].

لقد أدرك الجماليون قيمة المفردة القرآنية من حيث جمالية جرسها الموسيقي، وإيقاعها، ووقوعها الموقع المطمئن المستقر، وقد صرَّح علماء البلاغة[33] بالتناسب اللفظي الصوتي الفريد في القرآن حيث إنه لا يمكن وضع مفردة مكان أخرى؛ لأنها لا تؤدي معناها، ولا تفيد مقدار الدقة ذاتها، وتركيب حروفها لا يفي بالغرض الصوتي في سياق الجملة القرآنية، ولا تنسجم مع التركيب القرآني في جرسه الداخلي أو الإيقاع المطلوب في فاصلة الآية.

تلحظ هذه الخاصية في ختام الآيتين الكريمتين، فقد ختمتا بفاصلة متماثلة (نون مفتوحة قبلها واو ممدودة)، وبأربعة مقاطع صوتية متساوية تتطلب مَدَّ النَّفَسِ الصوتي مدا طويلا يقتضي أداء خاصا، ويعكس الصورة الكامنة في كل كلمة، والمعنى المراد بها، وهو انتهاء بين الآيتين متشابه -وإن اختلفا في الصورة المرسومة- إلا أنه ينسجم وطبيعة العرب المترنمة في خطابها، فقد وصفوا الألحان أنها مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذه بمجامع النفس. فهذا الضرب هو لون من ألوان حديثهم المسجوع، وجزء من موسيقاهم، وحكمة ذلك وجود التمكن من التطريب، فقد تذوق العرب الألحان بفطرتهم، . . .، فكان الشعر العربي الموزون المقفى أثمن شيء يحرصون عليه، وأمتع كلام تسمعه آذانهم، وتستطيبه قلوبهم، فجعلوا القرآن منه جرسا وإيقاعا، وانفعلوا بهما مثل ما انفعلوا بمعانيه ومضامينه.

---

[30]- نذير حمدان: الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم. ص 24.

[31]- السامرائي، فاضل صالح . (2007). التعبير القرآني. ط 5. عمَّان، الأردن: دار عمار. ص 10.

[32]- الرافعي، مصطفى صادق. (د. ت). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى. د. ط . ص 243.

[33]- حمدان، نذير. (1991). الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم. ط 1. جدة: دار المنايرة. ص 191.

قال سيبويه: " إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مدَّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا"[34]، فجاءت الآيتان على أسهل موقف وأعذب مقطع، مع افتراق الدلالة؛ لأن فضل كلام الله عز وجل على كلام البلغاء الذين إذا زادوا حرفا للترنم والإشباع كانت زيادته لا معنى لها في الغالب بخلاف كلامه سبحانه فإن حروفه كلها لها معان وليست بزائدة، فلا يقام حرف في موضع يحذف في موضع لمراعاة الفواصل فحسب بك يكون لأغراض بلاغية، وأبعاد نفسية، كقوله تعالى في سورة الضحى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)، حذف المفعول به الصريح للتجانس اللفظي، ومراعاة الفواصل القرآني، وكراهية حدة اللفظ؛ لأن الأصل: (قَلَاكَ)، أي كَرِهَك، فلم يرد الله مخاطبة نبيه بهذه اللفظة الحادة مباشرة، مع المحافظة على الفواصل القرآنية المنتهية بالألف المقصورة.

إن الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى وهذا يفرق بينها وبين السجع، فالمحافظة على الفواصل لا تحسن لمجرّدها، أو أن يكون ذلك هو المقصود بقطع النظر عن المعاني، أما إذا كانت المحافظة على الفواصل مع بقاء المعاني على سدادها فرعاية التناسب أمر حسن، فالفواصل أعمق بكثير من كونها سجعا صوتيا جزئيا، وهذا أمر أبانه الزمخشري بقوله:" إنه لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المؤنقة في السمع السلسلة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بال فليس من البلاغة في فتيل أو نقير"[35].

إن هذا القول ليس فيه تقليل من شأن الأثر النفسي الذي يتولد من مراعاة الفواصل بل هو تعظيم لمكانة البيان القرآني، لأن تقديم المتعلق جار والمجرور (في الغرفات) على اسم الفاعل (آمنون) الفاصلة القرآنية ليس لمكان نظم الكلام ولمراعاة حسن النظم السّجعي فحسب، بل هنالك ما يصاحبه من الأثر الموضوعيّ المتعقل الذي لا يحسن الغفلة البتة عن صحبته إياه، وإن كان لطيفًا في بعض المقامات، فتأمل تعانق المعنى بين المتعلق واسم الفاعل (آمنون) من توسعة الآمان فمن أمن في وحدته، فهو آمن في جمعته مع غيره، فالوحدة مبحث الخوف والقلق، والجماعة مبعث الطمأنينة والأمان، فمن نال الأمان في وحدته فهو نائلها في الجماعة، فسكت عن هذا المعنى للعلم به، لكونه حاصلا لا خلاف فيه، فطمأن القلوب بحصوله في الغرف.

---

[34]- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قِنْبَر. (1999). الكتاب. تحقيق إميل يعقوب. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. ج 4 ص 204.

[35]- الزمخشري، محمود بن عمر. (2006). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي. ط 1. بيروت: دار الكتاب العربي. ج 1 ص ص 164 - 165.

بينما يأتي السر الإلهي في تقديم المتعلق الجار والمجرور في آية العذاب (في العذاب) على اسم المفعول (محضرون) لأنه لولا القصر لانفتح المعنى، وقد يظن بعضهم أن المراد من النص (أولئك محضرون في العذاب وفي النعيم) فجعل تقديمُ المتعلقِ صورةَ الإحضارِ محصورةً في العذاب لا غيرُ، فلا تطلب النفسُ غيرَهُ، ولا تنتظر سواه، فتقطع الأمل، فتعاضد المعنى البديع في الآيتين والفاصلة القرآنية، فخرجت الآيتان في ثوب حسن، محبوك الصياغة، ومحكوم التركيب.

ثم تأمل -وأنت تنطق اسم الإشارة (فَأُوْلَئِكَ)- الامتداد الصوتي الحاصل بين صوتي (اللام) و(الهمزة) ثم الكاف الدالة على ما يعطي إيحاء ببعد المنزلة، وكأنه يخيل إليك أنهم في آخر مكان تراه العين، تأمل تكوين تركيب الإضافة (جَزَاءُ الضِّعْفِ) وحروفها المجهورة التي يحبس القارئ النفس عند نطقه الحرف؛ لقوة الاعتماد على مخرجه، وكأن الإنسان يحاول أن يظهر الكلمة فهو لا يخشى من ستر حقيقة، فيرفع بها صوته، تزيد مدة الصوت في المقطع الثاني من المضاف، لتظهر في المقطع الثالث الهمزة المجهورة، ويعتمد على قوة مخرج الهمزة ليمتد ملتقيا مع صوت الضاد المستعلي، ليسكن الصوت في العين الساكنة ليبدأ مستوى الصوت بالانخفاض، فالعين متوسطة القوة، والفاء رخوة ليخرج بنطقها ذلك الهواء الذي تَـجَمَّعَ من أول صوت الجيم (الجزاء) ليخرج مع كسرة الفاء.

بينما تأمل سرعة التصاق ظرفية (في) بالظرف -تجاوزا- (فِي الْعَذَابِ) فيُنْطَقُ (فِلْعَذَاب) بإسقاط الياء، فتلمح سرعة الالتصاق؛ مما يعطي دَلالة سرعة الدخول في العذاب، ووقوع هذه اللفظة (العذاب) في هذا الموضع وقوع اطمئنان واستقرار فلا يغني عنها غيرها، كمن يبحث عن مكان فوجده فقعد فيه مطمئنا متمكنا، فهي بحروفها المجهورة تصور مشهد العذاب فـ(العين، والذال، والباء) أصوات مجهورة واضحة النطق، جاءت هنا لأن الأصوات القوية تناسب المواقف القوية [36] فهي تعتمد حبسَ النَّفَسِ عند النطق بها؛ لقوة الاعتماد على مخرجها، فتلحظ وأنت تنطق هذه الأصوات المفتوحة؛ أي: المحركة بالفتح، سرعةَ الدخول في العذاب؛ نظرا لسرعة القراءة، فلا تجد وقتا لتدرك نفسك كمن فاجأه الآخذُ على غفلةٍ، فلا يستطيع عن نفسه دفاعا، ولا يملك لقواه اجتماعا، فينقطع منه السماع فيبقى مذهولا شاردا ينظر إلى ما جرى له.

تلحظ عند نطق هذه الأصوات في كلمة (العذاب) سرعة الانتقال من مقطع إلى آخر، ثم يضعف موقف المعذَّب لقلة حيلته، يظهر هذا الضعف في خصائص صوت (الذال) الصوتية، مع مدها الطويل، فالذال صوت رخو يجري مع النفس، لا يحتبس الهواء عن النطق به، فتأمل

---

[36]- علوية. (1986). بحوث لسانية بين نحو اللسان ونحو الفكر. ص 13.

هذه الصفات حاله حالُ رجلٍ أخذ على حينٍ غِرة، فوجد نفسه على أرض رخوة ملساء، لا تسانده فيقف، ولا تعاضده فيجمع قواه، فزلقت قدماه واتسعت، وهذا الاتساع تلمحه في مد صوت الذال الطويل (ذا)، ثم يصدم من زلت قدمه بما أمامه فيشتد ألمه، تأمل نطق كلمة (العذاب) بالوقوف على (الباء) تصور لك القراءة هذه الصورة أمام عينيك، وكأنك تشاهد عرضا مرئيا أمامك، فالباء الانفجارية تعطي معنى القوة والقسوة، كذلك يعطي الوقوف على البقاء بالسكون إيحاء بالضغط النفسي المشحون الذي ينفجر عند النطق بصوت (الباء) فيخرج الهواء المضغوط دَفْعَةً واحدةً، فالباء اجتمعت فيه صفات الجهر، والشدة، والانفجار، والقلقلة مع تحريكه بالكسرة، والكسرة توحي بانكسار نفسية المعذَّب الذي يحاول أن يبحث له عن مكان يلتمس فيه الراحة والهدوء، لكن هيهات، فهم ينتقلون من عذاب إلى آخر، وهم في العذاب محضرون.

إن هذا المشهد تلمحه في كلمة (مُحْضَرُونَ) المصورة انتقال هؤلاء المعذَّبين المكاني، وتحركهم السريع، فهي تصور لك بأصواتها الانتقال من عذاب إلى آخر، تلمح من وراء ذلك كله صورة العذاب الذي هم فيه ينتقلون، فـ(مُحْضَرُونَ) مشتق من الفعل (أُحْضِرَ) فالهمزة للتعدية، ومعناها هنا في الآية بيِّن واضح، والهمزة في اللغة القوة، والمعنى يشير إلى معنى الإمساك بالشيء بقوة فلا يفلت منك، وتحركه كيفما شئت.

إن التأمل في ترتيب الأصوات (الهمزة، الحاء، الضاد، الراء) تجد أن صوت (الهمزة) أبعدها مخرجا، يليه (الحاء)، ثم الضاد هو الوسط، فالراء هو الأقرب في النطق، فـ(الهمزة) من أصوات الحنجرة، ثم (الحاء) فهو صوت حلقي، مخرجه بين الهمزة والضاد، ثم يتقدم المعذَّب مرحلة نحو النار، وهذا يظهر في مكان مخرج صوت (الضاد) فمخرجه بين الحاء والراء، فيكونون أقرب إلى النار، فيقتربون من النار، ويوضح هذه الصورة صوت (الراء) الأقرب مخرجا عما سبقه، وهم في هذه المنزلة أقرب إلى مواضعهم ومنزلتهم.

يمتاز صوت (الراء) دون الأصوات بالتكرير، وهو إعادة الشيء مرة بعد أخرى، فكأنه يخيل إليك وهم على شفا حفرة النار، وهو يلوح به، ويهز ليُرمَى في النار، تجد صورة الرمية تتناسق مع نطق صوت (الراء) المكررة بمد الواو، وكيف تجتمع الشفتان، وتدفع بالهواء إلى الخارج، وكأنك تتخلص منه.

أين يسقط المعذَّب ؟ ! يسقط في النار، التي نتخيلها حفرة، وتأمل رسم صوت النون والنطق بها ساكنة يعطيك دلالة هذه الصورة المتخيلة، ولو نطقت بها مفتوحة لأعطتك دلالة انفتاح أبوابها لتلتهمهم. إن اختتام (مُحْضَرُونَ) بواو الجماعة يشير إلى أنهم سيرمون في النار أفواجا أفواجا، قال تعالى في سورة الملك: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ).

3. 2. المستوى الصرفي.

تعد بنية الكلمة الصرفية من أهم أسباب اختيار المفردة القرآنية، لأن لكل كلمة ذائقة سمعية تكتسبها من استقلالها بحروف معينة، قد تختلف عمّا سواها من الكلمات التي تؤدي المعنى نفسه مما يجعل الكلمة المختارة مؤثرة أكثر من الأخرى، وإن اتحدت معها بالمعنى، بما تضفيه الدلالة الصوتية التي تتجلى بكلمات مختارة[37]، لذا اقترنت بعض الأوزان الصرفية بدلالاتٍ خاصة من ذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة، وتأتي (الفعلى) في المصادر والصفات للسرعة نحو: البشَكى، والجَمَزَى، والولقى، فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر، والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها.

لم يغفل القرآن جرس الكلمة وإيقاعها، فهو "يتخير الألفاظ تخيرا يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جو الآية وجو السياق، بل جو السورة كلها في كثير من الأحيان، وبخاصة تلك السور القصار التي حفل بها العهد المكي لتأكيدها أصول العقيدة"[38].

يذهب أهل اللغة إلى أن " كل تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه"[39] حقيقة قد لا يلمسها إلا من امتلك ذائقة بلاغية، فيتحسس أسرار اختزال المفردة القرآنية أو إقرارها، أو الزيادة عليها، لهذا تلحظ أن مفردة (غرفات) تصور مشهد السعادة، وملمح النعيم اللذين يمتدان بعيدا، فجمالية هذا الأمان الحاصل في الغرفات ينعمه الله على من يشاء كَمَن يرى في نومه أنه في غرفة أو غرفات فإنه يأمن بإذن الله مما يخاف[40]. إن ذهاب الخوف دلالة على حلول الأمان، واطمئنان النفس لسلامة المستقبل، وقبول الماضي، فلا ماضي يُحزن، ولا مستقبل يخيف؛ فهم في غرفات الجنة - من كل هائل وشاغل – آمنون.

إن الصيغة الصرفية في جمع (غرفات) يعضده دلالة أول الآية، ويقوي هذا المعنى الحذف الحاصل في متعلق الاسم المشتق (آمنون)؛ توسعا، وتخيلا، ولتذهب النفس كل مذهب، فأقرب توجيه لهذا الحذف آمنون من كل شيء.

بينما حذف معمول (عَمِلُوا) في قول الله: (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا)، فالتقدير: عملوه؛ أي: عملوا الأعمال الصالحة، وإنما الحذف هنا؛ لوضوح المعنى، ولبيان الدلالة. ولم يكرر الإيمان في صلة الموصول؛ للتسليم به، فالأصل في بنية التركيب العميقة هي (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا آمنوا وعَمِلُوا) لكن المعنى أوضح، والإيمان لازم بالعمل.

---

[37] حسين محمد. (1981). الصورة الفنية في المثل القرآني دراسة نقدية وبلاغية. ط 1. عمَّان: شركة المطابع النموذجية. ص 238.

[38] كاصد، ياسر حسين. (1978). الجرس والإيقاع في تعبير القرآن. مجلة آداب الرافدين. جامعة الموصل. العدد 9. ص 335.

[39] السامرائي، فاضل صالح . (2006). بلاغة الكلمة في التعبير القرآني. ط 2. القاهرة: شركة العاتك لصناعة الكتاب. ص 4.

[40] شاهين، خليل. (د. ت). الإشارات في علم العبارات. د. ت. القاهرة: طبعة عيسى البابي الحلبي. ص 106.

إن مشهد العذاب، وفصله لا يتوقفان، ولا ينقطعان، فيبرز العذاب في صورة مجيء المسند (مُحْضَرُونَ) اسما مشتقا من الفعل المبني للمجهول، جاء في قالب (اسم المفعول)، الذي حُذِفَ فاعلُهُ، وبهذا الحذف أقيم المفعول به مقامه، ليبقي المعذَّب في خوف وهلع؛ لأن خفاء الفاعل يجعل المعذَّب منتظرا العذابَ من كل جهة، فلا يعرف مصدره، ولا قوته فيستعد له، ويتهيأ لصده أو تخفيفه، فيبقى مترقبا العذاب، ونفسه تتقطع خوفا؛ لأن ما خفي كان أعظم وأشد، ولو كان في أصله على غير حقيقته.

انتبه أبو هلال العسكري إلى هذا المعنى الدقيق عند تفريقه بين كلمتي: (الشاهد والحاضر)، فهو يرى أن "الحضور لَا يَقْتَضِي الْعلم المحضور، أَلا ترى أَنه يُقَال: حَضَره الْمَوْت، وَلَا يُقَال: شهده الْمَوْت؛ إذ لا يصح وصف الموت بالعلم، وأما الإحضار فإنه يدل على سخط وغضب، والشاهد قوله تعالى: (ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)"[41].

إن اشتقاق (مُحْضَرُونَ) - هو مشتق من الفعل (أُحْضِرَ) - يصور لك مشهدا مضاعفا فوق ما تحمله دلالة (الإحضار) المعجمية، فهي تشير إلى تعذيب نفسي؛ فهو لا يأتي بنفسه، بل يسحب على وجهه في العذاب، ويساق فيه، وهو يعيشه، ويقاد إلى النار، وهو يشاهدها، قال تعالى: (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ)، وقال تعالى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ)؛ أي: اجعلوا يديه إلى عنقه في الغل، ثم في النار المحرقة أدخلوه، وبالغوا في تصليته كالشاة المصلية، وفي مشهد آخر يقول تعالى: (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ) فحينئذٍ لا قوة له تسانده، ولا حول يمنعه عن مصيره، ولا اختيار له يلجأ إليه.

3. 3. المستوى التركيبي.

إن حلاوة النص القرآني، وجمالية أسراره لا تنحصر في مفرداته بل تظهر في كل حرف من حروفه التي تبني نظامه اللغوي، فتظهر في تراكيبه المتعانقة ما لا يظهر في تراكيب غيره، وهذا أمر لمسه أهل البلاغة، فدفع كثيرا من أئمة البيان وأرباب الفصاحة إلى تجاوز الأساليب الدراسية ليتذوقوا صور التراكيب القرآنية، فدونوا انطباعاتهم، وسجلوا انبهارهم حول أسراره البيانية، ونكته البديعية، يقول عبد القاهر الجرجاني في معرض حديثه عن جمالية الآية الرابعة والأربعين من سورة هود: " هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) فتجَلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهَرك الذي تَرى وتَسمع ! أنك لم تَجدْ ما وجدتَ منَ المزيَّةِ الظاهرة والفضيلةِ القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن

[41] العسكري، أبو هلال. (2013). الفروق اللغوية. تحقيق إيهاب محمد إبراهيم. ط 1. القاهرة: مكتبة ابن سينا. ص 291.

والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقربها إلى آخرها، وأن الفضل تَنَاتَجَ ما بينها، وحصل من مجموعها"[42].

من هذه الملاحظات البيانية كثيرة في القرآن الكريم، منها ما سجله عبد الكريم الخطيب في تفسيره قول الله تعالى: (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ)، إذ يرى الخطيب أن في هذا التركيب القرآني " إشارة إلى أن كل جماعة من تلك الجماعات الاثنتى عشرة قد علمت المشرب الذي لها من تلك العيون التي انبجست، فلا تشرب جماعة إلا من المشرب الذي هو لها. وهكذا يظل القوم في عزلة مادية، إلى جانب تلك العزلة النفسية التي اشتملت عليهم"[43].

هذا أمر تلحظه عند نظرتك في بنية التركيب العميقة من قوله تعالى: (جَزَاءُ الضِّعْفِ)، أي: تركيب الإضافة (جَزَاءُ الضِّعْفِ) هو من إضافة المصدر إلى مفعولِه، فهو في الأصل جملة فعلية، تقديرها (أَنْ يُجازِيَهم الضِّعْفَ)، ثم: (جزاءٌ الضعفَ)، ثم أضيف لتظهر (جَزَاءُ الضِّعْفِ)، وذلك بتحول هذه الصيغة لتظهر في بنيتها السطحية بعد إزالة المفعول به (الضمير)، وجعل المفعول به الثاني قائما مقام المضاف إليه.

إن هذا المزج والاختصار الحاصل على مستوى البنية السطحية صَيَّرَ الجملة الفعليةَ اسميةً دالةً على ثبات المسند؛ لما في الاسم من دلالة الثبوت والاستقرار، فاستعمل القرآن الاسم استعمالا فنيا في غاية الفن والدقة، فهذا الجزاء ثابتٌ لهم، ذلك على أنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرٌ لما بعده، والجملةَ خبرٌ لأولئك، وفيه تأكيدٌ لتكريرِ الإسنادِ، أو يثبت لهم ذلك على أنَّ الجارَّ والمجرورَ خبرٌ لأولئك، وما بعدَهُ مرتفعٌ على الفاعليةِ.

أما آية العذاب فتتجلى عظمة تعبيرها، وقوتها في مجيء المسند - المخبر به عن المبتدأ (مُحْضَرُونَ) - اسما؛ ليدل على الثبوت والبقاء، لزوم الحالة، وهذا أقسى وأعنف في الحالة التأملية؛ لأنه من جُدِّدَ عذابُه ربما ارتاحت نفسه؛ لأن النفس قد تؤمل الخيرَ في القادم، وفي هذا التأمل مدعاة لتفريج الهم، وتنفيس الكرب، لكن المشهد المتخيل هو البقاء والاستمرار فالحالة ثابتة، وهي يجعل المستقبل أقسى، والقادم أصعب فلا جديد يُنْظَرُ، ولا أَملَ يُقْبِلُ فيخفف الألم، فلا أمل في النجاة، ولا رجَاءَ، ولا خلاص بل قَدْ أيقنوا في العطب.

إن هذا الأمل المستشرف كان سيلمح لو كانت بنية التركيب جاءت بصيغة المضارع، أي: (فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ يُحْضَرُونَ)؛ لأن الفعل المضارع يفيد التجدد، وفي التجدد أمل وتخفيف، إلا أن صيغة الاسم الدالة على الثبوت قد قطعت كل رجاء فمَن أدرك هذا المعنى انقطع أمله، فعيشة العذاب تعب ونصب.

---

[42] الجرجاني.(2001). دلائل الإعجاز. ص ص 26 - 27.

[43] الخطيب. (د. ت). التفسير القرآني للقرآن. ج 5 ص 500.

بنيت الصورة التعبيرية في التركيب القرآني بناء عميقا في نظمها، فهي تمتلك القدرة على التأثير في النفس المتلقية، والقدرة على التغلغل في مسارب الفكر والذوبان في الشعور؛ لتضفي على وجدان المتلقي لذة فنية رائعة، وترسم له صورة ماثلة أمامه مشاهدة، فهي تهدف في تأثيرها في الوجدان والعواطف؛ لكونها نابعة من جمال الصورة الصادقة، ودقتها وإيحاءاتها وملاءمتها لمقتضى الحال، فتشهق النفس فرحا من صور النعيم، وتكاد النفس تزهق في مشاهد العذاب؛ لأن مشهد العذاب الذي يرسمه التعبير القرآني في هذه الآية المباركة يقوى على النفس، ويشتد معناه بسبب صياغته اللغوية؛ لتقديم مركب الجار والمجرور في قوله تعالى: (فِي الْعَذَابِ) على متعلقه (مُحْضَرُونَ).

إن هذا التقديم الذي تشهده بنية التركيب السطحية يقدم ملمحا بلاغيا لا وجود له في بنيته الجملة العميقة (فَأُوْلَئِكَ مُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ)؛ لما يحمله التقديم والتأخير أسرار بلا غية تكمن في معنى القصر والحصر الذي يصور لنا استمرار العذاب، ويرسم لنا الصورة التي يعيشونها، ويؤكد حالة الثبوت والبقاء، وهذا القول يعضده مجيء المتعلق اسما، وهو يدل - كما أشرنا سابقا - على الثبوت، والمعنى الكلي على هذا التقديم والتأخير هو كونهم لا يحضرون إلا في العذاب.

إن التأمل في معنى بنية التركيب العميقة (فَأُوْلَئِكَ مُحْضَرُونَ فِي الْعَذَابِ) تجده يفتح لهم نافذة من الأمل؛ لأن المعنى سيصبح معه (فأولئك محضرون في العذاب، وفي غيره)، فربما تتأمل النفس البشرية أنه قد يخفف العذاب، أو ينقطع ويحضرون – ولو مدة قصيرة - في رحمة، وراحة، وهذا أمر مقطوع ببنية التركيب السطحية، فلا يمكن أن يحدث؛ لأن القول تام مكتمل، وفهم لا يحضرون إلا في العذاب فلا منجأ لهم منه، ولا ملجأ، فتلحظ العذاب النفسي الذي رسمه تركيب (فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ يُحْضَرُونَ) بظلاله الإيحائية.

3. 4. المستوى المعجمي.

إن جمالية النص القرآني تتجلى في الكلمة المفردة، وتظهر في الكلمات المنتظمة مع غيرها، وهذا الانتقاء المفردة القرآنية أثار البلاغيين، فعبد القاهر الجرجاني من أشد البلاغيين تحمسا لإبراز نظرية النظم دليلا على إعجاز القرآن وجماله لا يغفل عن صورة الكلمة، وبنائها، وهو يرى أنَّ ثمة كلاما حسنه للَّفظ دون النظم، وآخر حسنه للنَّظم دون اللفظ، وثالثا قد أتاه الحسن من الجهتين، ووجبت له المزيَّة بكلا الأمرين.

تقدِّم التداولية تأويلا تامًّا للجملة التي كانت موضوع إلقاء أي قول، فكل جملة لها دلالة، وكل عدول عن الأصل هو خروج النص بنكتة بلاغية، وهذا ما تجده عند تأملك التعبير القرآن (أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)، فقد جاء العدول عن الحرف (إلى) مقصودا للطيفة بلاغية، فأصل التعبير يجري أولئك إلى العذاب محضرون، لكن التعبير القرآني جاء بـ(في)، ولا بد لفهم

النص فهمًا صحيحًا من النظر إلى القرائن المحيطة بسياقه؛ لهذا من يتأمل النص القرآني يلحظ أن جمالية هذا العدول إلى الحرف (في)، والانزياح عن الحرف الأول؛ تَكْمُنُ في كون حرف الجر (في) يدل على الصورة الظرفية المهيمنة لحالة العذاب التي يعيشونها.

تصور لفظة (الْعَذَاب) ألم الإحضار، وقسوة مشهد القدوم فالذي يساق إلى العذاب فهو في عذاب مستمر، فجاء التعبير القرآني فريدا في علوه، متميزا في تركيبه، فالإعجاز كامن في العلاقات الأسلوبية في نظم الألفاظ التي تظهر روعتها في تلاحم الشكل والصورة، بداية من وظيفة الكلمة المفردة حتى وظيفة التركيب في لوحة متكاملة بليغة، تتجلى في جمالية الصورة والتعبير البلاغي.

بينما في آية النعيم فتتجلى روعة العدول في كسر اتصال الجملة، وانقطاع الاستثناء؛ فاستثناء (مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) من الضمير (كَمْ) في قوله تعالى: (تُقَرِّبُكُمْ) استثناءٌ منقطعٌ فهو منصوبُ المحلِّ (على الرأي الراجح). إن إخراج ما بعد (إلا) عن حكم ما قبلها يركز النفس في تلقي هذا الحكم، فانسكاب معنى أول الآية يكسِّره حرف الاستثناء الذي يهيّء ثبات ما بعد (إلا)، فالذي يقرب إلى الله هو العمل الصالح، لا غير.

يرسم القرآن بتراكيبه المشاهد ماثلة، وتتابع فيها رسوخ هذا المعنى، وكأنك تنظر - وأنت تقرأ مثلا قوله تعالى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا من يقربكم عندنا زلفى) - إلى ميدان مزدحم تتناثر عناصره، وتطاير فلا يبقى فيه إلا من آمن، وعمل صالحا، فتأمل إلى قوة الثبات التي أبعدت غيرها، فبقيت ثابتة راسخة.

هذه الجمالية تلحظها في اسم الإشارة (أُولَئِكَ)، وهو يرسم مشهدا عظيما؛ إذ يعطي دلالة البعد، أي: بُعْدَ المنزلةِ، ويتضح هذا البعد وينكشف للقاري عندما يعرض الحالين أمام ناظريه، أي: حالة المنعمين وهو يتخيل علو المنزلة للإيذانِ بعلوِّ رتبتِهم، وبُعد منزلتِهم في الفضلِ، وحالة هؤلاء المعذبين وهم في قعر الجحيم، وسوء العذاب.

إن هذا البعد المتخيل في المنزلة يحمل في آيات النعيم العلو والرفعة، بينما تحمل الإشارة إلى هؤلاء المعذبين في طياتها صورة مهيبة مروعة توحي بظلال النبذ والطرد، فمن ابتعد عن القوم والجماعة عاش في قلقٍ، وخوفٍ، ولا سيما العذاب يحيط به من كل مكان، بل أصبح العذاب ظرفا لهم، ففيه يحضرون، ولا يذهب عنهم، ولا يزول.

يكشف المنهج التداولي بعدا أوسع في سر استخدام (أل) في قول الحق (أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)، وتكشف الكلمة المحذوفة التي تقدر في سياقها، فـ(أل) هنا تفتح المعنى على الإطلاق، لكونها للجنس؛ وعلة هذا القول يكمن في سببين: الأول: العذاب الذي يعيشه المحضَر ليس عذابا مألوفا؛ لتكون (أل) للعهد، فهو لم يألف هذا العذب؛ لأن كل عذاب بعذاب الآخرة

نعيم. والآخر: صحة تقديرك كلمة (كُلّ) قبل لفظة (عَذَاب)، فتقول: (فَأُوْلَئِكَ فِي كُلِّ عَذَابٍ مُحْضَرُونَ)، فهو عذاب نفسي، وجسدي.

إن من أهم الأسرار البلاغية الكامنة في تعريف كلمة (العذاب) هو استغراق أفراد هذه الحقيقة جميعهم، فتشمل اللفظة صور العذاب المقدر، والمتخيل، مع اصطحاب مجازية تركيب الجار والمجرور (فِي الْعَذَابِ).

إن في التعبير المجازي دَلالة، وبلاغة، وقوة، لهذا عَدَّتِ العربُ المجازَ من مفاخر كلامهم، وبه بانت لغتهم عن سائر اللغات، فهو دليلُ فصاحتهم، ورأسُ بلاغتهم، وسنام حديثهم، فجمالية دلالة المجاز تظهر في الاتساع والتوكيد والتشبيه، وهذا معنى غير موجود في التركيب الحقيقي، فقد زَادَ تركيب (فِي الْعَذَابِ) أسماءَ الجهاتِ جهةً جديدةً وهو العذاب وهذا اتساع وتفصيل، وأخبر في هذه الآية عن المعنى بما يخبر عن الذات، وهذا تأكيد وتعضيد، وشبه العذاب بما يجوز النزول فيه، والسكون والحلول، فكأنه منزلٌ ودارٌ وهذا تشبيه، لا يحصل لو استخدم التعبير على حقيقته، نسأل الله العفو والسلامة.

أمَّا بلاغة المجاز فهو أبلغ في كثير من الأحيان من الحقيقة؛ لأن " المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع"[44]، لهذا تظهر نكتة العدول إلى المجاز في قوته؛ لما يُكْسِبُ التعبيرَ من تخيل، فيكسوه ثوبا يعكس نفسية المتلقي تجاه هذا المشهد المرسوم، فالنفوس الإنسانية تختلف في رسم الغائب، وتخيله، مما يجعل النص الواحد متعدد الدلالة، متفاوت الدرجة حسب نفسية المتلقي، فقولك: (في العذاب) يصور لك العذاب بألوان شتى، وهيئات متنوعة، حسب نفسية المتلقي، فقد يتصور المتلقي هذا العذاب وكأنه سور يحيط بالمعذَّب، ويعيش فيه، أو هو دائرة والمعذب يدور فيها أينما ولَّى وجهه اصطدم بحدودها فلا يخرج من إطارها، وهذا كقولك: (مُحَمَّدٌ أَسَدٌ) فهو أقوى تخيلا من قولك: (مُحَمَّدٌ شُجَاعٌ)؛ لما في كلمة أسد من القوة، والهيبة، والانقضاض، والافتراس، والسرعة.

إن هذا المشهد القرآني المرسوم بدقة الألفاظ، والمنقول بإيجاز التعبير نقلا دقيقا تظهر شدته عند مقابلته بآية النعيم، فـ(الجَزَاءُ) هو مقابلة الشيء بما هو من جنسه المستحق بالعمل سواءٌ خيرا كان أم شرا، و(الضِّعْفِ) هو اسم جنس، أي: بالتضعيف إذ بعضهم يجازى إلى عشرة، وبعضهم إلى سبعمائة حسب الأعمال.

إن عظمة هذا التركيب تكمن في انفتاح دلالة لفظة (الضِّعْف)، فالضعف في كلام العرب هو الْمِثْلُ، تقول: ضَعَّفْتُ الشيء، وضاعفته، وأضعفته فمعناه جعلت الواحد اثنين، ويحتمل لفظ (الضِّعْف) معنى الزيادة بلا مقدار، فليس ثمة مقدار معين يجازى به، وهذا أقوى الاحتمالات،

---

[44]- القيرواني، ابن رشيق. (2001). العمدة في محاسن الشعر وآدابه. تحقيق محمد عبد القادر. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية. ج 2 ص 267.

والله أعلم؛ لأن الله يضاعف لمن يشاء إلى سبعمائة ضعف بحسب الأعمال، والإخلاص فيها، وحسب مشيئته جل شأنه، فالمحسن مع هذا الكرم يبقى مترقبا الكثير، متأملا كل خير، منتظرا كل سعيد، فالضعف في الآية الكريمة اسم جنس؛ أي: جزاء التضعيف.

إن بداية هذه الآية الكريمة (فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ) وقع موقعا مطمئنا مستقرا يتناسب وقوله تعالى (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) تناسبا تاما؛ فجمع غرفات يتناسب وجزاء الضعف، لما فيه من معنى الكثرة، وهذا القول بخلاف ما ذهب إليه سيبويه في أحد قوليه إن جعل دلالة جمع السلامة دلالة قلة، حيث أجاز سيبويه مجيء هذه الصيغة؛ أي: بنات التاء، دالةً على الكثرة، يقول معلقا على بيت حسان بن ثابت، يقول:"وقد يجمعون بالتاء وهم يريدون الكثير"[45]. ويدعمه قول الله سبحانه: (وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ) إذ لا يجوز أن تكون الغرف كلها التي في الجنة من الثلاث إلى العشر، لهذا قيل: "جمعا السلامة مشتركان بين القليل والكثير"[46]، والسياق هو المؤيد هذا، والمحدد.

اشترط السمين الحلبي لدلالة الجمع على الكثرة تحليته بـ(أل)، يقول:" ولا حاجةَ تدعو إلى هذا؛ لأنَّ جَمْعَ السلامةِ المحلَّى بأَلْ التي للعمومِ يقعُ للكثرةِ، فلا فرقَ إذا بين الثمراتِ والثمار، وهذا ويجوز عَدُّ الغرفات جمع الجمع، وهو يتناسب مع التضعيف الحاصل في أول الآية، جاء في تاريخ النحو أن أهل البصرة يسمون الغرفة بيتا[47]، لهذا يمكن أن نبني عليه الجمع، فنقول: بيت غرفة، بيوت غرف، بيوتات غرفات، ونقل الأفغاني هذا القول عن أبي عثمان الجاحظ[48].

الخلاصة والتوصيات:

كان علماء العربية مدركين بحسهم اللغوي الأسرار النفسية في اختيار وحدات القرآن المعجمين، وكاشفين أسرا ترتيب مفرداته التركيبة، فقرروا أن عملية الحديث يتنازعها قطبان مهمان، هما: المعنى الْمُرَاد التحدث عنه، واللفظ الْمُعَبِّر عن هذا المعنى؛ فاختلاف المعنى المراد التعبير عنه، يوجب اختلاف ترتيب الألفاظ.

جاء التعبير القرآني فريدا في علوه، متميزا في تركيبه، فالإعجاز كامن في العلاقات الأسلوبية في نظم الألفاظ التي تظهر روعتها في تلاحم الشكل والصورة، بداية من وظيفة الكلمة المفردة حتى وظيفة التركيب في لوحة متكاملة بليغة، تتجلى في جمالية الصورة والتعبير البلاغي.

---

[45]- سيبويه. (1999). الكتاب ج 4 ص 37.

[46]- الاستراباذي (محمد بن الحسن): شرح الرضي على الكافية. تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر. بيروت: دار الكتب العلمية. ط 3. 1982. ج 3 ص 397.

[47]- الأفغاني، سعيد بن محمد بن أحمد. (. د. ت.). من تاريخ النحو العربي. د. ط . الكويت: مكتبة الفلاح. ص 22.

[48]- الجاحظ، عمرو بن بحر. (1988). البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. ط 7. القاهرة: مكتبة الخانجي. ج 1 ص 19.